

## التربية والديموقراطية: تحليل لحالة توتر دائمة

الميلود عثمانى

باحث في علوم التربية

### تمهيد

حينما نسعى إلى التفكير في قضايا التربية المعاصرة، تواجهنا صعوبات شتى؛ منها: كيف يجب أن نقدر الطابع المعقد للقضايا دون أن نضل الطريق؟ كيف نأخذ بعين الاعتبار التطورات الاجتماعية الحالية دون الوقوع في خطأ تفتيت الخطابات؟ كيف ننتبه إلى الأهمية الأمبريقية للظواهر المنظورة دون الوقوع في صيغة من صيغ التعميم المطلق والضروري؟

إن السؤال الذي يفرض نفسه، هنا، يتعلق بـ«شبكة الوضوح»، سواء أعلق الأمر بتفضيل الاهتمام بالمدرسة، أم تعلق الأمر، عامة، بما يمكن أن ندعوه بالتجربة الديموقراطية في حقل المدرسة. وإذا توخينا التدقيق، سنسأل: كيف نفكر في تربية المعاصرين (الذين هم ديموقراطيون بطبعهم) دون الوقوع في النزعة الاختيارية للأنظمة التربوية؟ إن المؤلفات التي خصصت للتربية كثيرة، فعلا، غير أن القليل منها تقدم تأويلات جعلت من أمر فهم عام وتاريخي للظواهر المنظورة صعبا، في الوقت الذي تنظر بعين الاهتمام إلى الوقائع التاريخية والاجتماعية. لهذا يبدو لنا عمل مارسيل غوشي مندرجا ضمن هذا المنظور المزدوج لكونه يبلور من جهة أولى تصورا للروابط الجديدة والمركبة بين الدينامية الديموقراطية والتربية، ومن جهة ثانية، لأنه يعطي لهذه التجربة الديموقراطية كل أبعادها وملاءمتها التاريخية والفلسفية. فالمشكلة التي يتناولها غوشي هي: التجربة الديموقراطية في حقل التربية تفرض نفسها، لكنها تحتاج إلى تدقيق حواشيها، قصد جعل الروابط بين الديموقراطية والتربية، في الآن نفسه، ضرورية، بشكل تام (الديموقراطية هي تربية الشعوب)، وقائمة على الصراع النسبي؛ ذلك أن دينامية الديموقراطية تتعارض وفعل النقل والتدريس. وتقع هذه الازدواجية الديموقراطية في صلب الفلسفة السياسية للتربية كما بلورها مارسيل غوشي.

### 1. قراءة في مارسيل غوشي

لقد غذت أعمال غوشي هذه الأسئلة والقضايا، منذ عشرين عاما، وهي أعمال عنيت عناية فائقة ببناء «فلسفة سياسية للتربية». لقد كان الغرض من كل ذلك شرح مدلول التجربة الديموقراطية في حقل التربية، وإخضاعها للسؤال، أي أن الهدف هو إضاءة « هذه الفكرة المنتشرة، والحاضرة في مجتمعنا في أن تكون لنا مدرستنا الممكنة والمשתهية»<sup>1</sup>. هذا هو السبب الذي دفع غوشي إلى مزيد من التفكير والتأمل سعيا لبلورة مشروع جديد ومغاير، من داخل مؤلفاته وبموازاتها.

1. Gauchaet M. « Démocratie, éducation, philosophie » : Pour une philosophie politique de l'éducation. Paris : Fayard, 2002, p.20.

يمكن للواحد أن يقرر دون تردد، أن ثمة مساهمتين لغوشي تتوجان التأمل الذي نعني؛ من المدرسة إلى المدرسة في ذاتها (1985)، وهو مؤلف وضع باعتباره رداً على كتاب جون كلود ميلنر «بخصوص المدرسة»<sup>2</sup> الذي صدر السنة السابقة، وشكل رد فعل قوي وإدانة صريحة لعينة من الإيديولوجيات «البيداغوجية» والسياسة التعليمية الناجمة عنها. اقترح مارسيل غوشي تأويل مناظرات تلك الفترة بميله إلى تبني وجهة نظر خارج-مجالية تبدو مقاربة ميلنر إزائها سداسية الشكل ومحدودة في موضوعها بشكل كبير. سعى غوشي في دراسة حديثة «الديموقراطية والتربية والفلسفة» (2002)، إلى تنظيم تفكيره وضبطه بإجراء تمييز بين مجموعة طبقات في حقل التربية، والتقدم بفرضية أن تلتف الديموقراطية على نفسها. يمكن، مبدئياً، أن نلخص الإسهامات الأساسية لمؤلفي غوشي فيما يلي:

1. هناك رابط مفترض بين الديموقراطية المعاصرة والتطورات التي تشهدها المدرسة والتربية في حاجة ماسة إلى أن يوضح. فمن أجل استيعاب الرهانات المعاصرة للمدرسة، من الضروري الانكباب على تحولات الفردانية في المجتمع الديموقراطي، أي مادام الأمر يتصل بالمؤسسة المدرسية والمعضلات التي تواجهها كي تحمي شرعيتها<sup>3</sup>، أكد غوشي أن المسألة لا يمكن الإمساك بها بشكل تام وتحليلها تحليلاً نسقياً إلا إذا تصورناها من منظور «مجتمع الأفراد». إذك يمكن للقضية أن تصاغ على الطريقة الآتية:

كيف يمكن لنا، في «مجتمع الأفراد»، أن نربط بين الحقوق الفردية وطرق حمايتها والإقرار بوجود إكراهات جماعية يمكن أن تحول دون تحققها؟ من أجل هذا يقترح علينا غوشي حلاً فعالاً يتمثل في إحداث تغيير عام للمواقع، يجعل من أمر إعادة تجديد نظرتنا إلى المدرسة والتربية ممكناً<sup>4</sup>؛ فبدل الاقتصار على مجال الجدالات المدرسية والتربوية، يدعونا غوشي إلى التأمل، بعمق، في «أزمة المدرسة وتحولاتها باعتبارها مؤشرات دالة على الصعوبات المركزية لمجتمعنا الذي يمثل نفسه ويصور فعله»<sup>5</sup>.

2. وترابطاً مع ما سبق، فإن ما نسب إلى الزمن القصير للحدث السياسي، مع جون كلود ميلنر، قد تم تصوره هنا، من خلال الزمن البعيد لزمن المجتمعات الديموقراطية المعاصرة. واضح هنا، أن عدداً من الأعمال والمؤلفات التي طالما اندرجت ضمن «التوترات» المخترقة لنسق «التربية المعاصرة» لم تعد، لدى غوشي، أولوية اقتصادية أو اجتماعية أو ديموغرافية. وكي نعبر عن الأمر، بشكل مفهوم، يمكن القول إن أزمة المدرسة ليست جزءاً من بين

2. Milner J.-C., De l'école, Paris : Le Seuil, 1984.

3. وهو ما دعاه فرانسوا دوبي بـ«إزالة الطابع المؤسسي».

4. الوضع الحالي للمدرسة المغربية والاختيارات التربوية الآن، هي مناسبة ملائمة لإحداث التغييرات المرجوة، فالمجتمع متفق على أن العرض التربوي هو دون المأمول، والنخب الثقافية والسياسية، بلغت درجة من الإجماع. فهذه لحظة مفصلية لثورة في منظومة التربية والتكوين.

5. Gauchet M., « L'école à l'école d'elle-même »-in : La démocratie contre elle-meme. Paris : Gallimard, Collection, Tel, 1984, p.111.

أجزاء أخرى لأزمة عامة تعيشها الرأسمالية المعاصرة. يمكن القول أن هذه المسببات المشار إليها تبرز على «شاشة» الفهم لأزمة يجب أن نشخصها باعتبارها أزمة ثقافية أو فلسفية. يقول غوشي :

«إذا كان ثمة» تفسير» يحول دون فهم رهانات ما يدور حول المؤسسة المدرسية اليوم، فهو كل ما يتصل بالتنديد بخضوعها للاقتصاد[...] ذلك أن مشكلة المجتمع تندرج ضمن تحول عام للمجتمعات، والتحول الاقتصادي جزء منه، ليس في الاقتصاد فقط، وليس قبل الاقتصاد بالضرورة»<sup>6</sup>.

إن مارسيل غوشي وهو يأخذ بشكل جدي الأمور التالية:

- خطاب التحولات الديموقراطية؛
- التدقيق في تحولات النزعات الديموقراطية الفردانية داخل مجتمع علماني؛
- تفحص مجموع التحولات التي تشهدها المؤسسات التعليمية؛

فهو يتحمس لما سماه، على سبيل التوصيف الإشكالي، بالتجربة الديموقراطية للتربية<sup>7</sup>.

3. ضمن سياق خاص، صاغ مارسيل غوشي في مؤلفه «الديموقراطية والتربية والفلسفة»، فرضية التفاف الديموقراطية على نفسها، حيث صارت الأمور تمثل كما يلي: من المحتمل أن تكون التربية الديموقراطية، التي بدونها لا توجد ديموقراطية ممكنة، هي الشرط الجذري لأي مدرسة ديموقراطية. وعليه، فإن الرهان الصعب سيكون في إيجاد توافق غامض بين الديموقراطية والتربية؛ وهي ملاءمة تحتاج إليها الديموقراطية كي تتحدد، بشكل دينامي وديموقراطي.

انطلاقاً من هذا الوضع ستصبح أزمة المدرسة هي أزمة الديموقراطية، أي أنهما لن يكونا مجرد حوادث سير في طريق السياسة التعليمية، بل إنهما سيتحولان إلى أمور حاسمة وملهمة تساعد على حل مشاكل عويصة ومتعددة. هذه الأزمات تسهم في إرساء أسس البنية الديموقراطية. حيث تعتبر دولة الأزمة الوجه العادي والمألوف للتربية الديموقراطية، وهو ما يعني أنه سيكون من العبث أن نضج كلما تأزمت المدرسة، كما هو الحال في بلادنا التي عانت، منذ ثلاثة عقود من عمر المدرسة المغربية الوطنية، وستعاني أزمات مماثلة في المستقبل، وهو ما يعني أننا مطالبون بالثقة في المنطق الجدلي للنقاش حول المدرسة الوطنية، وجعل «الإبداعية الديموقراطية» رائدنا. يقول مارسيل غوشي، في سياق الحديث عن التجربة الفرنسية:

6. Gauchet M. « Démocratie, éducation, philosophie », 2002, p.21.

7. شكلت الرؤية السوكولائية الخلفية الفكرية لمؤلفات غوشي. وقد طور الرجل هذه الخلفية ضمن مؤلفه المتميز: Le désenchantement du monde, Paris, Gallimard, 1985.

أما مفهوم «التجربة الديموقراطية للتربية» فيؤول للمفكر والفيلسوف الفرنسي الكبير ميشيل فوكو وسنحيل عليه في الجزء الثالث من مقالتنا هذه.

«لدينا، بصفة إجمالية، تجربة ديمقراطية كسبنا منها أمرا جوهريا على الأقل: كل ما اعتبر أمرا صعبا وشاقا من لدن عقول ذكية (...) صار الآن أمرا قابلا للتجاوز. فالديموقراطية إذًا، هي عبارة عن دوائر يجب علينا أن نحاول فهمها، وهي ما سيقينا من الكارثة.»<sup>8</sup>

إن هذه الدعوة إلى «الإبداعية الديمقراطية»، وهذه الثقة المعلنة لصالح التجربة الديمقراطية هي من الأمور التي تثير الانتباه على أكثر من صعيد. وعليه، إذا أخذنا، بشكل جدي، فكرة التوافق الغامض بين التربية والديموقراطية، سيكون من الصعب القبول بالرأي القائل بأن الصعوبات ستختفي من تلقاء نفسها، وبشكل نهائي. وفي نفس المعنى، فإن هذه الرؤية الغائبة، نسبيا، للديموقراطية وديناميتها تهمل، بكيفية من الكيفيات، عينة من المفاهيم قادرة على ضمان بناء التجربة الديمقراطية للتربية. وأخيرا، ومادام الأمر يتعلق باقتراح فلسفة سياسية للتربية، يتضح، وبكيفية مريبة، أن الفعل السياسي غائب، وقد تمت التضحية به على نصب التاريخ ومجرياته غير المتناهية. وفي الحالات جميعها، نصادف هنا موضوعا محيرا ومثيرا، في آن؛ ثمة دعوة إلى إجراء قراءة نقدية لنصوص مارسيل غوشي التي خصصها للتربية.

## 2. نقد مارسيل غوشي

إن نموذج مارسيل غوشي، هو من عينة النماذج التي تستدعي سلسلات كثيرة من الأسئلة، يمكن ان نصوصها كما فيما يلي:

1. ما الذي يستهدفه مارسيل غوشي حينما يخصص للمدرسة والتربية نصوصا كثيرة؟ وماذا يقصد بالضبط حينما يتحدث عن المدرسة الديمقراطية؟ هل يتعلق الأمر بالمدرسة الفرنسية وتطورها الحالي، أم عن التقاطع وتقاطع نماذج تعليمية داخل المجتمعات المعاصرة والديموقراطية؟ وهل ذلك معناه أن هناك دينامية ديمقراطية في مجال التربية داخل كل مدرسة وطنية؟

إن الصياغات الشكلية والعامة ليست مرضية، لأنها تهمل الخصائص وتعتبر ما يبني ويشيد هو ما يستحق أن يكون من ضمن المكتسبات. فأزمة المدرسة ليست ظاهرة ملحوظة، في كل مكان، إذ يبدو أن كل نظام تعليمي يمثل مظهرا خاصا من المظاهر المرتبطة بالتاريخ الوطني والسياسات التعليمية التي يتم تفعيلها عمليا.

أضف إلى ذلك أنه بقبولنا لأزمة المدرسة التي تضرب في عمق المجتمعات، من خلال الحركات الاجتماعية القائمة على التعددية الثقافية والمطالب الهوياتية، فإن المصاعب لا تختفي دوما إلا لكي تظهر بمظهر مختلف، أو تتطور وفق أشكال غريبة وعجيبة؛ ذلك أن الوقائع التاريخية والاجتماعية ليست متجانسة داخل هذه المجتمعات التي تواجه تحولات متشابهة.

وإذا تحدثنا عن المغرب، ونظرنا إلى نظامه التعليمي، فمن الواجب، ونحن نقبل على تحليله،

8. Gauchet M. (op.cit), « Démocratie, éducation, philosophie », p. 22.

أن نميز بين المستويات (الابتدائي والثانوي والجامعي)، لأن الأزمة تؤثر على كل مستوى بطريقة خاصة؛ فالمدرسة الابتدائية استطاعت أن تقاوم، إلى وقت قريب، الصعوبات التي كان التعليم الثانوي يعانيها (خاصة في المرحلة الإعدادية، والأمر ربما قد يعود، دون شك، إلى التكوين الجيد الذي استقر تاريخيا، ونظرا لحسن تكوين المعلمين الذين كانوا يسهرون على التطبيق النسبي لنموذج تعليمي واضح.

في النهاية، فإن المجتمعات المعاصرة تواجه جميعها، مع بعض الاختلافات البسيطة والصيغ المتنوعة، أنواعا من المنطق الجديدة للتمييز بين الجهات والمناطق خاصة بها. وهي أنواع من المنطق السالبة التي تؤثر، بدرجة أو أخرى، على الأنظمة التعليمية المختلفة. ونظرا لضغط شديد تمارسه عتالة بنوية كبيرة، فإن مبدأ المدرسة الوطنية والممغربة والموحدة، فقدت منذ زمان، وعلى الصعيد التربوي الوطني، تجانسها. والآن، صار من الممكن الحديث عن مدارس (مغربية) مختلفة إن محليا أو جهويا أو وطنيا. وهذه التميزات التربوية والتعليمية ستقود النظام التعليمي الوطني، إلى أهداف مختلفة، وستعيد النظر، بشكل جذري، في مسألة القيم الموحدة لتكافؤ الفرص التي هي أساس ديمقراطية المجتمع؛ غير أن الصعوبات لا تتوقف هنا، فداخل كل نظام تعليمي وطني، يجب أن نشير إلى وجود تفاوت حاد ما بين السياسة التعليمية المعلنة والواقع التعليمي الملحوظ، فثمة تفاوت واضح بين الميثاق الوطني للتربية والتكوين والإصلاحات اللاحقة (المخطط الاستعجالي، ورؤية 2015-2030) وكيفية تنزيل المدرسين للبرامج داخل الفصول. وهذا التفاوت لا يمكن، بحال من الأحوال، إهماله أو الاستهانة به، إذ يجب فهمه وتأويله بكونه يتقدم فعل المأسسة ذاته، ويجب أن يسبق تجانس مقترحات الخبراء والمختصين وتفعيل كل ذلك في النهاية. من المفيد والمجدي إعادة النظر في عمل جهاز التفتيش الذي يضيفي شرعية معينة على رؤية معينة للبرامج المعلنة، مع تمييز الخطاب الداعي إلى تجديد تكوين المدرسين والتكوين المستمر. كما سيكون من الناجح، في الوقت الحالي، العناية بجمعيات الأساتذة والمنظمات النقابية. وهكذا ندرك أن عمل مارسيل غوشي هو عمل مجدي ومفيد لأنه يقترح علينا شبكة لتأويل الظواهر التربوية في المجتمعات الديمقراطية أو التي ترنو إلى إرساء الأسس الديمقراطية ضمن نسقها التعليمي. هذا التقدير، لا يمنعنا من القول إن عمل غوشي قد يبدو خادعا نظرا لمبالغته في الارتكاز على العموميات. طابعه الاستكشافي ليس موضع مساءلة، الأمر يتعلق فقط، وفي إطار الوضوح المقترح، بحاجة كل سؤال نتصور إلى بناء خاص، يأخذ بعين الاعتبار الشروط التاريخية والاجتماعية والمؤسسية والبيداغوجية للموضوع الذي نختار دراسته؛ سواء أعلق الأمر بالسلطة أم بالثقافة أم بنقلها، والتعلم وكل التحويلات البيداغوجية الناجمة عن كل ذلك.

2. من الواضح الجلي، أن مارسيل غوشي القارئ الذكي لطوكفيل وكلود لوفور ولويس دومون، يتبنى حدا تصوريا للديموقراطية (تكافؤ الفرص، تنمية النزوعات الفردية) يستمد منه نظريته لعالم اليوم بشكل متلائم، في حين، نجد أن مثل طريقة الاشتغال هذه، تطرح مشاكل عدة لأنها تولي، في النهاية، قليلا من الاهتمام لأمر التجاور، أي لما يمكن أن نصطلح عليه بالاحتمالية التاريخية والفعل السياسي وتعددية الوضعيات. كل شيء يتم كما لو أن

الفلسفة السياسية القائمة خاضعةً لخطأ غائبة، تجعل من كل فعل سياسي مؤسساتي أمراً غير ذي فائدة، في مجال التربية على وجه الخصوص. وعليه فإن الدينامية الديمقراطية ستشمل كل الأحداث، وستحل كل التناقضات المرئية، مما يحول الديمقراطية إلى حركة عارمة وعمامة تستعين بسلسلة من الحيل، حيل العقل الديمقراطي. ونتيجة لذلك، فإن هذا المنظور يطابق، في جزء من بنيته، بنية تفكير طوكفيل. وإذا ظل مارسيل غوشي يعدد من المؤلفات والمرجعيات التاريخية، كي يضيف طابع الصرامة والآنية على فلسفته التاريخية، فإن هذا الصنف من تأويل الديمقراطية وديناميتها المتزايدة يواجه مشكلات كثيرة. فمنذ أعمال كلود لوفور صار كل واحد يرى في الديمقراطية نهاية مأساوية للعالم اليقين، وانتهياراً لكل الترتيبات الطبيعية. بمعنى آخر، صارت الديمقراطية هي هذه الدولة الاجتماعية وهذا النظام السياسي التي لا تكتب فيه الأمور من قبل؛ فالفعل السياسي والاجتماعي له خالق ومؤسس محتمل لا يمكن أن يصبح موضع جدل أو أخذ ورد. وعلى النقيض من كل ذلك، يعتمد مارسيل غوشي فكرة أن ما هو جوهري وأساسي يتم تقديمه دفعة واحدة، منذ البداية. ونتيجة لذلك، فإن الديمقراطيات الوطنية تسلك، يقينا، طرقاً خاصة وأصيلة، وستنتهي إلى إعادة إنتاج خطأ موجهة، مع تأكيد صحة ما تم اقتراحه مسبقاً.

3. من الأمور التي لايساورنا فيها شك، أن وجهة نظر مارسيل غوشي عن الديمقراطية تبدو في آخر التحليل، صعبة التأويل ومتناقضة. فهي ليست نظرية تقليدية معيارية بالمعنى الذي يعطيه لها ألان رونو<sup>9</sup>، فليس هناك أية معالجة برانية عن الدينامية الديمقراطية؛ لكنها ليست معالجة وصفية صارمة. ففي مقال 1985، الموسوم بـ«L'école à l'école d'elle-même» يتبين بأن نظريات التعلم تستند إلى تصورات ضعيفة وفقيرة وخاطئة كلية بخصوص الثقافة التي يتم التصحية بها، في النظام المدرسي. وفي مقال 2002 الموسوم بـ«Démocratie, Education, philosophie» يقترح فرضية التفاف الديمقراطية على نفسها. مثل هذه الفكرة تجلب لقائلها نقداً جارحاً وجذرياً، مادام الأمر يتعلق بالقول باستحالة العلاقة التربوية اليوم. إن الإعلاء من مفهوم «تقرير المصير» باعتباره عنصراً سابقاً عن الفردانية الديمقراطية، يخرب الفعل التربوي، مما يجعلنا نقول إننا أمام نمط جديد من المعيارية غير الممعييرة، هي جزء من نسق الديمقراطية، تفعل فعلها من الداخل، وتشتغل وفق تحليل متشدد، مرتبط بالتجربة الاجتماعية. ومثل هذا النقد، لا يمكن بأي حال من الأحوال، أن يشكل قبلية شكلية؛ ففي مقابل الوضع المعياري الصريح، يقترح مارسيل غوشي ما سماه بـ«العمل الفلسفي» الذي يشرح الزمن الحاضر بتقديم حقل الممكنات. فالتحليل التاريخي وحده قادر على استكشاف هذه الاختيارات الفلسفية والسياسية.

### 3. التجربة الديمقراطية في حقل التربية

وقبل أن نقدم على اقتراح مثال للتجربة الديمقراطية في مجال اللغة، أو قراءة مركبة في الوضع الاجتماعي، يستحسن ان نثير، مبدئياً، قضية ذات خصوصية إبستمولوجية هامة. وستكون إحالتنا، في هذه القضية، على جون ديوي في مؤلفيه الأساسيين «الديموقراطية

9. Renault, Alain : Découvrir la philosophie : 1. Le sujet, Editions Odile Jacob (poches), Paris, 2010.

والتربية» و«تجديد البناء في الفلسفة»<sup>10</sup> الذي اعتبر مصدر إلهام للتداولية الأمريكية . غير أننا لا ندعي أن نظرية جون ديوي ستحل الصعوبات الفلسفية والسياسية التي أثارها سابقاً، وأننا نتفادى الاصطفاً إلى جانب التداولية الأمريكية<sup>11</sup>. ما يجذبنا إلى جون ديوي تأكيداً أن الثورة الديموقراطية، قبل أن تكون ثورة فلسفية، هي ذات طبيعة إبستمولوجية، مما يجعل مهمتنا تكمن في شرح هذه الثورة الإبستمولوجية وتفسيرها، والتدقيق في العناصر التي تكونها قبل أن ندخل إلى تفاصيل العقائد الجديدة.

ثلاث قضايا تسترعي انتباهنا في مؤلف جون ديوي هي تجديد بناء الفلسفة (المذهب الحيوي والإبستمولوجيا)، الحياة الاجتماعية وحسن السلوك، التربية الديموقراطية. يستند عمل جون ديوي على البحث، بعامة، وعلى التجريب الذي يحترم ألفبائية البحث التجريبي، بخاصة، على مستوى المنهج الإبستمولوجي. فيفضل تقنية البحث، نفهم، بالفعل، لماذا مستقبل المجتمعات أمر مفتوح ومشروط، في الآن نفسه. ونجد، في قلب هذا المنطق التجريب مفهوم التفاعل الذي وظفه جون ديوي انطلاقاً من تصور دينامي للحياة. ففي فلسفة جون ديوي، ثمة نزعة حيوية اجتماعية وسياسية<sup>12</sup>.

وانطلاقاً من هذه الاعتبارات ذات الطبيعة الحيوية والبيولوجية لعصر جون ديوي، سعى هذا الأخير إلى تمرير تقديراته صوب الحقلين السياسي والاجتماعي؛ فالنزعة الحيوية من شأنها جعل التطور أمراً ممكناً ودينامياً وخلاقاً في حقل الديموقراطية، وفي حقل التربية الديموقراطية كذلك. الديموقراطية، كما يسجل جون ديوي، يجب أن نتصورها بكيفية جذرية؛ إذ نحن مطالبون أن نؤكد على الأبعاد التاريخية والإبداعية للإجراءات الديموقراطية، وإهمال الأفكار والمواقف القائمة بزوال العوالم والمجتمعات القديمة. إن العالم المشترك، في حقل الديموقراطية، يتم إبداعه وبناءه، بشكل يومي. وهذا المعطى هو جعل جون ديوي يقابل مفهوم التجريب بمفهوم التجربة كما تتضمنه الفلسفات التجريبية الكبرى؛ فالتجريب هو نشاط، بينما التجربة هي أمر جامد ومحيد، في الغالب الأعم. التجريب فعل وواقعة، تنتقي، من خلال التفاعل، ما يعينها، أي ما يسهم في تطورها وتناميها، بشكل جوهري. وسنعود لاحقاً إلى سؤال إن كان جون ديوي يشجع على إقامة نوع من التقارب المعاصر مع التقاليد والماضي ضداً على حالات الرثاء والتشكي من مسألة امحاء الذاكرة وضعف ثقافة المعاصرين: «ليس علينا أن نعيد الماضي، ببساطة، أو أن ننظر الحوادث التي تجربنا على التغيير. فنحن نوظف تجاربنا الماضية كي نبني

10. Dewey J. Démocratie et éducation, Paris, Armand Colin, 1990/1916, Reconstruction en philosophie, Publication de l'Université de Pau. Editions Léo Scherer (1996).

11. لا نود أن نزعم أن مؤلف جون ديوي هو جزء من التداولية الأمريكية. أما نظريته عن الديموقراطية الجذرية فهو بحاجة إلى شرح وتفسير، ليس هنا مجاله، لأننا سنهتم بالجانب الفلسفي لنظرية الرجل دون الجانب التاريخي.

12. وهي نزعة مختلفة عن نزعة هاربرت سبينسر، تقول بأن الكائن الحي لا يكتفي بالتأقلم مع وسطه، ولكنه يؤثر عليه وفيه ويسعى لتغييره فعلاً. ويطابق هذا المنظور، لدي جون ديوي، التمييز الكلاسيكي ما بين النمو والتطور؛ فإذا كان النمو يدل على تحيين شيء ما كان موجوداً بالقوة، فإن التطور، على العكس، يشير إلى الامتوقع وخلق أشكال وصيغ غير مسبوق؛ الإشارة إلى قصة لا تزال تتمخض، في المكان والزمان، وفق منطق غائي تاريخي مألوف.

تجارب جديدة وجيدة مستقبلا. نفهم من تجربة، كذلك، الإجراء الذي، من خلاله، تسير إلى تحسنها الخاص»<sup>13</sup>.

إن هذا النص القصير لديوي، يحتاج بمفرده إلى تعليق، لأن النص نموذجي، ودال على الطبيعة الفكرية والحجاجية لجون ديوي. لنؤكد فقط، بأن الرجل، هنا، يقابل التجربة الكلاسيكية للماضي، والتميز بالتركرار، بالتجربة المعاصرة المتجهة، من الآن فصاعدا، إلى المستقبل، أي متجهة إلى الاستعمال وإعادة تأليف الماضي، وليس الحرص على المحافظة عليه. ومما يثيرنا، أيضا، في هذا النص القصير، بعده الأخلاقي؛ ذلك أن حكم جون ديوي يدور حول التعددية الأكسيولوجية التي تميز المجتمعات المعاصرة والديموقراطية، بشكل واضح وكبير، في مقابل المجتمعات القديمة التي تعلقت بفكرة وجود خير أسمى أو هدف نهائي يجب، على الجميع، أن يبلغه أو يقترب منه، أي وجود سلطات عليا يجب على الكل أن يمثل لها امتثالا كليا. وفي المقابل، تقف الحداثة على النقيض، معتقدة بوجود تعددية غير قابلة للعدد. إنها تعددية بدئية، تسمح بوجود نسبية أخلاقية، وهو ما يقلب النظام الأخلاقي الكوني، يقول جون ديوي: «ليس الإنسان، بعامه، ولكنه الفرد من يعاني ألما خاصا ويبحث عن تغطية صحية، حيث الصحة لا تعني بالضبط ما تعنيه بالنسبة لإنسان آخر»<sup>14</sup>.

مثل هذا المنطق المعاصر للحالة، الذي هو منطق الفرد والفرديانية، يفسر الأهمية الخاصة التي يوليها جون ديوي للتربية، باعتبارها إرساء لأسس أنثروبولوجية ثقافية وتاريخية واجتماعية. إن التربية هي عبارة عن مسطرة أخلاقية تتيح النمو والتطور، وذلك على أساس أن نفهم أن الفرد، في فلسفة ديوي، يقف على النقيض من مفهوم الفرديانية التملكية الليبرالية؛ فالفرد الديوي، هو فرد ملتزم. ومهما يكن من أمر، فإن التربية لدى جون ديوي، لا يوجهها نموذج أنثروبولوجي ثابت، على نحو قبلي، اعتمادا على تصور معياري للطبيعة الإنسانية. لهذا، نجد هذه التربية لا تقتصر على فترة مدرسية، ولكنها تمتد مدى الحياة. فهي في صلب ما دعاه ديوي بـ«قلب التنشئة الإنسانية»<sup>15</sup>. فإذا انخرط الفرد في مسار تنموي، طوال حياته، فلن تكون التربية تحضيرا لأمر سيأتي لاحقا؛ ذلك إن التربية هي أن يستخلص الفرد منافع، من حاضره، تسعفه على النمو والتطور. هي إذأ وظيفة ثابتة لا علاقة لها بمسألة السن. إن اكتساب كفاية، أو التحكم في معرفة، أو حمولة ثقافية ليس غايات في حد ذاتها، ولكنها علامات عن النمو، ووسائل لمواصلة النمو<sup>16</sup>. وفي هذا الإطار نجد جون ديوي، يعوض مفهوم الإرث، وهو مفهوم مركزي في النموذج التربوي الكلاسيكي، بمفهوم الاستعمال الذي يعني السعي إلى تمثل النظام الديموقراطي المنشغل بالحاضر، والذي يتجاهل كل ما سلف.

13. Reconstruction en philosophie, *op.cit.* p. 98.

14. Reconstruction en philosophie, *op. cit.*, p. 142.

15. وإذا قارنا بين إميل دوركايم وجون ديوي، على صعيد التربية، نلاحظ أن الأول يعتبر التربية غير منفصلة عن نمط أنثروبولوجي ثابت ومحدد، في حين يبتعد الثاني عن أي تصور جوهرائي، معتبرا أن لاشيء محدد تجديدا قبليا، وأن كل شيء يبني تبعا لمنطق تجريبي يقود إلى النضج والحيوية، يقضي، في آخر المطاف، إلى تمكين الفرد من المشاركة التاريخية.

16. Reconstruction en philosophie, *op. cit.*, p. 142.



ففي مؤلفه «ديموقراطية وتربية»، الفصل السادس (التربية المحافظة والتربية التقدمية)، يتفحص جون ديوي مدلول المرور من تربية كلاسيكية تتحكم فيها فكرة الإرث، إلى التربية المعاصرة التي تقودها فكرة الاستعمال. وملخص هذه الفكرة: مادامت الديموقراطية إبداعاً متواصلًا، فهذا يعني أن دور المدرس(ة) المعاصر ليس ضبط الفرد وتربيته وفق معايير موجودة وإجبارية، بل منحه الفرصة كي يتفتح وفق قدراته في هذا العالم.

إن التربية لدى جون ديوي، هي:

- ابتكار عالم يسوده الشك؛
- المدرسة مختبر للتدرب على المواطنة؛
- تمكين الفرد من أن يندمج، سياسيا واجتماعيا، بشكل قليل، ولكن أن يؤثر سياسيا واجتماعيا، بشكل كبير؛
- تستعيز بالتعليم بدل الضبط؛

وعليه، فإن مثل هذه الأطروحة تشتمل، كذلك، على تصور للعلاقة بالماضي والثقافة. فالتربية المحافظة التي تنظر إلى الماضي باعتباره إرثا، تقع، على النقيض، من التربية التقدمية التي تشجع على استخدام الماضي كي يتم تخصيصه، وهو ما سيساعد على استخدام الماضي استخدامات عدة، مناقضة للتراث والتقاليد التي هي مثال حي وعلامة فائزة على غياب روح الابتكار والحيوية الثقافية في حقل الديموقراطية: «الماضي مورد عظيم للخيال، يضيف بعدا جديدا للحياة، لكن بشرط أن نعتبره ماضيا للحاضر وليس عالماً آخر منفصلاً»<sup>17</sup>.

يعتبر هذا الحل الذي قدمه جون ديوي، من الناحية الفلسفية، مقنعا، وترتفع عنه الصفة الإشكالية ما إن نعالجه من الوجهة التجريبية؛ فتعلم التاريخ، مثلا، يقتضي الوصول إلى معالم متعالية، بشكل خاص، وبعيدة عن التجربة الفردية. زد على ذلك أن الفرد الديوي لا يمكن أن يكون سوى «ذات منهجية» قابلة للتأقلم. مما يعني أن لا غنى لهذا الفرد عن الإرث الثقافي، فهو لحظة تطبيقية، وإلا فإن تثقيف النفس سيتحول إلى لحظة فراغ.

وكي نخضع المفاهيم الديوية للاختبار، من الممكن أن نتصور ما الذي ستكونه التجربة الديموقراطية في مجال اللغة. في هذا المعنى، لابد أن نحيل أنفسنا على مؤلفه الخاص (De la démocratie en Amérique) عن الديموقراطية في أمريكا<sup>18</sup>، لأنه كتاب يصنف المعطيات والكلمة والمواضيع والقيمات المتصلة بين اللغة والديموقراطية. ينفي جون ديوي

17. نفسه، ص. 153-154.

18. نستهدي هنا بتحليلات صوفي أوليفو ستاتيوس ضمن أطروحتها الهامة: «www.theses.fr/2003CAEN1386» وكتاب وليام دوايت ويتني:

William. Dwight, Whitney : La vie du langage, L'Harmatan, Paris, 2010.

أن يكون مجرد وجود لغة تنمو، في مجتمع ديمقراطي، عاملاً طافياً لجعل اللغة موضوع استعمال ما بين تخصصات شتى. إن الذات الديمقراطية المتكلمة يحتمل أن تأخذ واحدة من صورتين الآتيتين:

• المراهقة اللسانية؛

• الإبداعية.

تنشأ المراهقة اللسانية عن ضعف يطول المعايير المكتوبة التي من شأنها أن تحرر دينامية المبدع. والعصر الذي نعيشه يشهد اختفاء لوجود معيار موحد ووصفي، إذ ليس هناك «اعتباطية مشتركة» ذات طبيعة اجتماعية ومنطقية. يرى طوكفيل أنه بتوقف اللغة عن الإحالة إلى معيار متعال، فسينجم عن ذلك «طوفان» دلالي، أمر استخدامه متروك للجماهير المتكلمة. ومن الزاوية الاجتماعية، فإن ترابعية الأساليب، وهي خاصية جوهرية للنظام الأرسطوراطي، سيتم هجرانها. هل يجب على إثر هذا التشخيص، أن نخلص إلى أن اللغة تسير نحو حتفها أو خرابها، حينما تترك لمعايير التواصل؟ الذات المتكلمة المعاصرة، تماماً كما يجري تكوينها، في المدرسة العمومية، بسلك الابتدائي، لا تربطها علاقة أدائية باللغة؛ فعلى العكس تتمتع بوعي ميطا-لغوي حاد. فمثال اللغة يسعف على القول بأن الوقائع الاجتماعية الديمقراطية هي، غالباً، وقائع كنائية، تمنع من التجمد الذي هو ذو طبيعية معيارية، سبق لمارسيل غوشي أن رفضها؛ ذلك أن العلاقة باللغة الديمقراطية، مثلاً، هي حصيلة لمتناقضات:

• الفوضى لكنها إبداع متوازن؛

• قيم تبادلية، تداولية، خاصة، لكن حسن رد الفعل.

### على سبيل الختم

كل تجربة ديمقراطية هي تجربة تبنى، وثمة ثلاثة حقول للتحليل تنشأ بناء على ذلك، إذا قبلنا بالتعريف الذي أعطاه ميشيل فوكو للتجربة باعتبارها ترابطاً بين مجموعة أشكال تذبذبية، وأنماط معيارية ومجالات معرفية<sup>19</sup>. وحينما يتعلق الأمر بالأشكال التذبذبية، من اللازم أن نتساءل عن معرفة كيف نتفادى خطر الفراغ الذي يصاحب تطور الفردانية الديمقراطية. أما بخصوص الأنماط المعيارية، فيجب أن نتساءل عن كيفية تصور مؤسسة شرعية في مجتمع يقوم على رضا الفرد وقبوله. وأخيراً، وبخصوص مجالات المعرفة، يجب التفكير في التفصيل القائم بين الثقافة المدرسية والثقافة، إذ يجب أن نتساءل عن أنماط الثقافة المهيمنة بحجة أن فكرة الثقافة قد تغيرت طبيعتها.

19. Foucault, M, L'usage des plaisirs, Paris : Gallimard , 1984.

## المراجع

- Dewey, J -Démocratie et éducation, Paris : Armand Colin, 1990.
- Reconstruction en philosophie, Publication de l'Université de Pau ; Editions Léo Scherer(1996).
- Gauchet, M -« L'école à l'école d'elle-même »-in : La démocratie contre elle-même. Paris: Gallimard, Collection Tel 1984.
- « Démocratie, éducation, philosophie » : Pour une philosophie politique de l'éducation, Paris : Bayard, 2002.
- Milner, J.-C. De l'école, Paris: Le Seuil, 1984.
- Renault, Alain Découvrir la philosophie : Le sujet, Paris: Editions Odile Jacob (poche), 2010.
- William Dwight, Whitney, La vie du langage, Paris: L'Harmatan, 2010.